أيا شاعر النيل قلبتُ عينيَّ بين النجوم التي سطعت في سماء بلادي ، لعلي أرى بينها شعراء أضاءوا الحياة على النيل ، كانوا لنا رائدين ، فأُسمعت صوتا من الأفْق يهتف : مرْحَى ، فقد آن أن يُنصِف الشعرَ والشعراءَ فتى لا يزال يغني بديوان مجد العروبة ، لم تلهه مغريات زمان تعاقب فيه النقيضان : عز قديم هوان جديد ، نذير بعاصفة سوف تمحو الحياة على الأرض تطلق ريح الدمار ، بشير بأن الهداة سيقتحمون قلاع الطغاة .

أيا شاعر النيل فيه ولدتَ وعشتَ على شاطئيه ، فجددَت ذكرى نبي من المرسلين[٣١] ، ولكنما (السَّامري) أضل اليهود ، فخروا سجودا لعجل من الذهب الخالص المقتنى من حرائر مصر كقرض ، وكيف السداد وهم لاجئون بسيناء ، لم يهتدوا ويوفُّوا الحقوق إلى أهلها .

ولا غرو أن كان شعرك عذبا رقيقا مصفى ، كأن القوافيَ قد صاغها النيل كيما تكون رحيقا به يرتوي الظامئون ، وبورك هذا السفين بـ (ديروطَ)[٣٢] حيث ولدت لأم من الترك ، والأب من (مصر) ، كانا كريمين ، لكنما الأم قد فارقتك صغيرا فعشت يتيما . وقد لاح فجر نبوغك في الشعر منذ عرفت الطريق إلى ساحة (السيد البدوي) ، هنالك أثنى عليك الشيوخ لظرفك واللطف والسمر العذب في الأمسيات ، وكان مقامك إذ ذاك في بيت خالك ، لكنه ضاق بك فضقت به قائلا حين غادرت منطقا للديار التي تسع البائسين :

---

(٣١) النبي موسى عليه السلام ، وقد ألقته أمه في النيل بناء على وحي من الله تعالى ، و (السامري) اسم رجل من اليهود أضلهم في سيناء .

(٣٢) ولد شاعر النيل يوم ٤ فبراير ١٩١١ في ذهبية (أي سفينة) في النيل ، بالقرب من (ديروط) وهي مدينة في صعيد مصر .

[ثقلت عليك مئونتي ... إني أراها واهية
فافرح فإني ذاهب ... متوجه في داهيه (٣٣)]

وكانت معاناتك الفقر والبؤس منذ حللت (بطنطا) على الرغم مما أشاد به المعجبون بشعرك سوط عذاب عليك ، فناشدت ربك موتا ينجيّك من ظلمات الحياه :

[عجبت لِعُمري كيف مُدّ فطالا ... وما أثَّرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالي قد أراه مباعدا ... وجُلّ مرادي أن أوسَّد حالا
فللموت خير من حياة أُري بها ... ذليلا وكنت السيد المفضالا]

وشاء السميع العليم بمأساتك القدرية أن تحفر الصخر حتى يَلِين ، ومن ثغرة في الجدار الأصم نفذت ، فشاركت في مكتب للمحاماة ، غادرت صاحبه قائلا :

[جِراب حظي قد أفرغته طمعا ... بباب أستاذنا (الشِّيمي)[٣٤] ولا عجبا
فعاد لي وهو مملوء فقلت له : ... مما ؟ فقال : من الحسرات واحتربا]

ترددتَ بين المكاتب تسعى وبين المحاكم ، لا رغبة في البقاء هنا أو هناك ، فأنت الملول بطبعك لا ترعوي رغم ما قد بليت به من نوائب عيش عسير ، فكان مسيرك قُدُما إلى (مصر)[٣٥] حيث التحقت (بكلية الحرب) ، سعيا إلى منصب يكفل الجاه والمال ، أمضيت فيها ثلاث سِنين ، وحين تخرجت أُلحقت (بالداخلية)[٣٦] حيث عملت (مُلاحظَ بوليسَ) في الريف ، تجمع بين النقيضين مثلي : الصرامة في الضبط والربط طوعا وكَرها ، وعشق حياة المدينة دون قيود .

---

(٣٣) يدل هذا البيت على شغف الشاعر باللهجة المصرية وعلى سخريته اللاذعة .

(٣٤) مصر في هذا السياق تعني القاهرة كما يسميها الريفيون .

(٣٥) وزارة الداخلية ، وملاحظ بوليس وظيفة في جهاز الشرطة ، والضبط والربط مصطلح شرطي .

وعدت إلى ما به قد بدأت كأمر مطاع فلا عذر (ضابط حربية) ، وأُرسلت قسرا إلى موقع في بلاد الأشقاء (سوداننا) في الجنوب ، وسرعان ما ضقت (بالعسكرية) في (ثكنة)[35] ، تحت إمرة (ضباطها الإنجليز) قساة القلوب وأذنابهم ، فهجوت رئيسك حين أساء إليك بأرجوزة[36] ساخره :

[تراه إذ ينفخ في المزمارِ ... كأنه في رتبة السردارِ
يجتنب العاقل والنبيها ... ويعشق الجاهل والسفيها]

وصورت ما قد بليت هنالك من محن العيش في غربة ، والحنين إلى مصر ، فيما كتبت من الشعر والنثر للأصدقاء ، ومنهم (محمد بيرم) :

[أثرتَ بنا من الشوق القديم ... وما أثرت فيه الهموم زوالا
وأيام كسوناها جمالاً ... وذكرى ذلك العيش الرخيمِ
فمن لي أن أرى تلك المغاني ... وأرقصنا لها فلك النعيم
ولكني مقيدة رحالي ... وما فيها من الحُسن القديم
نزحت عن الديار أروم رزقي ... بقيد العُدْم في وادي الهموم[37]
وما غادرتُ في السودان قفرا ... وأضرب في المهامة والتخوم[38]
وها أنا بين أنياب المنايا ... ولم أصبغ بترتيبه أديمي)[39]]

وفي ثورة أُجهضت بعد حين وكانت تقاوم مستعمرين أشداء حوكم (حافظ) متهما بالخيانة من بين من حوكموا ، واكتفى (المجلس العسكري) بعزله من

---

(35) الثكنة مقر جماعة من ضباط الجيش .
(36) الأرجوزة : مقطوعة أو قصيدة منظومة على وزن الرجز .
(37) العدم (بضم العين وسكون الدال) : الفقر .
(38) المناطق الصحراوية .
(39) يعني أن مقامه في السودان قد سود جلده .

الجيش للضابط الشاعر المتمرد ، دون (معاش)[43] يؤهّله للإقامة في مصر حرا كريما ، فأدركه اليأس والخوف من سلطة الحاكمين إذا ما هجا أو شكا :

[إذا نطقت فقاع السجن متكأ ... وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب]

وفي مصر حين استقر بها أنعم الله بالخير والحسنات على الشاعر الضابط الحر ، إذ كان من أصفياء (الإمام)[44] بمجلسه ، والمحبين في الندوات ، تفيض نوادره والفكاهات حتى تفيض العيون سرورا ، وينسى المريدون أوجاعهم . ثم جاد رجل من العظماء عليه ، فكانوا له وسطاء لدى صاحب العرش ، حتى أفاء عليه برتبة (شوقي)[45] ومنصب (دار الكتب) ، فظل رئيسا لها قرابة عشرين عاما .

وحان أوان النهاية للشاعر العبقري ، ففي بيته أدركته المنية بعد إحالته للمعاش بأربعة من شهور ، وماتت به الأمسيات المضيئات باللهو دون ابتذال ، وبالشعر كالنيل عذبا فراتا .

فضيلة التواضع

[ثورت تواضعا وعلوت قدرا ... فحسناك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تأبى أن تُسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع[46]]

كأن الذي صاغ هذا القصيد الرصين رأى حافظا شاعر النيل في مصر حيث المقام ، أو الشام حيث المزار[47] ، وصاحبه بُكرة وعشيًا ، فأدناه منه تواضع نفس تسيل صفاء ، ورقة قلب يفيض حنانا ، فلا كِبرٌ بل كبرياء ، ولا عُجْب بالنفس لا

---

(43) المعاش : الأجر الذي يتقاضاه الموظف بعد تركه وظيفته .
(44) الإمام : الشيخ محمد عبده .
(45) رتبة شوقي : رتبة أمير الشعراء إذ نالها قبل شاعر النيل وصار الكرسي .
(46) بيتان من التراث الشعري ، وتسامى : يكون لها نظير في السمو .
(47) حيث المزار : إشارة إلى زيارة شاعر النيل إلى الشام .

خيلاء ، ولا فخر بالشعر وهو اللآلئ مزدهرات ، ولولا تواضعه ما اصطفاه الأكابر والتابعون صديقا ودودا وفيا ، وكانوا مريديه في كل ناد ، فقد كان قدوته سيد الخلق في رأفته .

كأنك يا حافظ العهد أُمًّا أبا للجميع ، وقد كنت ندا لشوقي ، ولكنك اخترته رائدا عبقريا ، فكان المجلى وأنت المصلى[45] . تواضعت حتى ارتضيت فأنشدت من شعره قصائد في الندوات على مسمع من حضور ثقات ومرأى ، فأشجيتهم بالغناء الرخيم ، وبايعته عن رضاء وحب أميرا عليك ، وتوَّجته ملكا للبيان،

[بلابلَ وادي النيل بالمشرق اسجعي ... بشعر أمير الدولتين ورجِّعي[46]
أعيدي على الأسماع ما غردتْ به ... يراعة (شوقي) فك ابتداء ومقطع
أميرَ القوافي قد أتيتَ مبايعا ... وهذي وفود الشرق قد بايعت معي]

وأنت الذي قد دعوت إلى حفل تتويج شوقي أميرا على الشعراء جميعا بمصر وجيرانها الأقربين ، ولم يغضبوا ، بل أشادوا بموقفك الحاتمي[47] .

بين شوقي من منفاه وحافظ بمصر

لقد كنت في القرب والبعد نعم الصديق الوفي لشوقي ، كتبت إليه بمنفاه في أرض أندلس من بعيد ، وكان كتابك ردا على مقطع منه شاج حزين ، فجاوبته بقصيد بديع يصور معنى الوفاء لمن غاب حينا عن الأهل والصحب والنيل في غمرة الحادثات ، مطارحة صغتها في قصيدة تتويج شوقي أميرا على الشعراء :

[تذكرت عذب الميل والنفس صَبَّةٌ[48] ... إلى نهلة من كوب ماء مشعشع[49]
وأرسلت تستسقي بني مصرَ شَربة ... فقطَّت أحشائي وأضرمت أضلعي
أنروى ولا تروى وأنت أحقنا ... بريٍّ فيا قلب النبوغ تقطع

(45) المجلى : السابق الأول في الميدان ، والمصلى : الثاني .
(46) المراد بالدولتين مصر والشام أو الشعر والنثر .
(47) الحاتمي : نسبة إلى حاتم الطائي المشهور بكرمه .
(48) صبة: الصب (بتشدد الصاد والباء) : المحب المشتاق .

وإن شئتِ عنا يا سماء فأقلعي ... ويا ماءها فاكفف ويا أرض فابلعي
حرام علينا أن نلذ بنهلةٍ ... وأنت تنادينا ونحن بمسمع]

فذكَّرتنا بقصيد (حبيب بن أوس)[1] إلى شاعر[50] من محبيه يناجيه فيه أخا لأخيه ، فما الشعر إلا أبو الشعراء جميعا :

[إن يختلف ماء الوداد فماؤنا ... عذب تحدَّر من غمام واحد
أو لم نسب ، يؤلفْ بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالدِ]

وفاؤك يا حافظ النيل تِبْرٌ[2] مصفًّى[3] ، فليس ليصدأ مهما توالت عليه مئات السنين ، وكم من قصيد نظمت حنينا إلى الرفقاء على القرب والبعد سيان ، مثل قصيدة مدح بعثت بها إلى أحد الأصدقاء وأنت بعيد بعيد ، ولستُ بناس لها يوم أنشدتها أمام (العميد)[51] ، وقد كنتُ حينئذ يافعا يحفظ الشعر يلقيه عن ظهر قلب ، فكافأني لاختياري القصيدة أنموذجا لمعاني الوفاء .

أيا شاعر الذكريات الحِرار بهرتَ محبيك من علماء ومن شعراء (كحفني ناصف) علَّامة الفقه والشعر والنثر ، كم من قصيد تناجيه فيه :

[يا من ضربتَ بسهم ... في كل علم وفنّ
بنيتَ للشعر فينا ... والنثر أعظم ركن
وما خُلقتَ لعمري ... في الشرق إلا لتبنى
فكل ربِّ يراع ... في مصر خَرِّيج (حفني)]

(49) حبيب بن أوس : أبو تمام ، والمقصود بالشاعر في هذا السياق علي بن الجهم .
(50) التبر (بتشديد التاء المكسورة وتسكين الباء) : الذهب .
(51) العميد : الدكتور طه حسين ، والمناسبة هي امتحان مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية (الثانوية الآن) سنة ١٩٤٢ م .

وواسيته في رثائك قُرَّة عينيه (باحثة البادية)[٥٢] :

[صبرا أبا (ملك) فإن الباقيات لمن صبر
كن أنت أنت إذا تساء كأنت أنت إذا تُسر
يا برَّة بالوالدين أبوك بعدك لا يقر

فسلي إلهك سلوة لأبيك فهو به أبر

وليهنك الخدر الجديد فذاك دار المستقر

خليلك (مطران) ترجمتما – ناثرين – (كتاب اقتصاد) ، وظل الإخاء إلى حين حم قضاؤك دون افتراق ، فكنت وفيا له رغم ما قاله الحاسدون ، ألست الذي قد شدوت (بميمية) يوم نال الوسام :

[قد سمعنا (خليلكم) فسمعنا شاعرا أقعد النهى وأقاما
وطمعنا في شأوه فقعدنا وكسرنا من عجزنا الأقلاما
نظم الشام والعراق ومصرا سلك آياته فكان الإماما

فمشى النثر خاضعا ومشى الشعر وألقى إلى (الخليل) الزماما ورأى فيه رأينا صاحب النيل فأهدى إليه ذاك الوساما]

و (داود عمون) شاعر لبنان صورت ، فيما نظمت مديحا له ، عاطر الذكريات ، تطارحتما الشعر عذبا رقيقا كشدو الحمائم ، أو كخرير الينابيع في أمسيات الربيع :

[أ (داودُ) حسبك أن المعالي تحسب دارك في دارها

---

(٥٢) ملك ابنة الشاعر الناثر حفني ناصف ، والملقبة (بباحثة البادية) ، وكانت من فضليات الكاتبات والباحثات المدافعات عن حقوق المرأة بعد قاسم أمين ، ولها كتاب سمته (النسائيات) وقد ربطتها بالكاتبة المشهورة مي زيادة صداقة أدبية .

وأن ضمائر هذا الوجود تبوح إليك بأسرارها
وأنك حين حللت الشآم رأيناك جذوة أفكارها
وإن كنتَ في مصر نعم النصير إذا ما أهبت بأنصارها]

وكان رثاؤك (عبد الحليم) رفيقك في دوحة الشعر لحنا تنوح قوافيه ، فالسهم كان مصيبا له ولقلبك بعد الرحيل ، إذا ما بكى الشعراء أحبتهم من رجال القريض ، فإن القوافيَ تبكي القوافي كما قال قِدْمًا (حبيب) ، وقد كان في عصره الشعر أهلا وصار غريبا شريدا ، فلم يستطع غير أن يرثيَ الشعر ، أو قد عصاه فودّعه قائلا :

ألا إن نفْس الشعر ماتت وإن يكن عداها حِمام الموت وهي تنازعُ
سأبكي القوافي بالقوافي فإنها عليها ولم تظلم بذاك فواجع]

ألا ما أحرَّ الدموع التي قد سكبتَ وقد غاب (عبد الحليم) رفيقك في نظم ملحمتين[٥٣] ، فلله دركما حين صورتما الصاحبين ، ومجَّدتما القيمَ الصالحات كما وردت في الكتاب المبين ، وفي سنة المصطفى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام:

[لكَ الله قد أسرعتَ في السير قبلنا وأثرت يا (مصريُّ) سُكْن المقابرِ
وأورثتنا حزنا عليك وحسرةً على فقد سبَّاق كريم المحاضر
فلم تثو يا (عبد الحليم) بحفرة ولكن بروض من قريضك ناضر
فسامرْ (أبا بكر) هناك فإنه سيظفر في عَدْن بخيرِ مسامر]

و(محمود)[٥٤] رب اليراعة والسيف مثلك ، من بعث الشعر من رقدة الموت ، كان إمامك في لغة الضاد تحفظ أشعاره ، والذي اختاره من جياد قصائد أزهى

---

(٥٣) إشارة إلى قصيدة حافظ إبراهيم عن الخليفة عمر بن الخطاب ، وقصيدة عبد الحليم المصري عن الخليفة أبي بكر الصديق .

(٥٤) محمود سامي البارودي رب السيف والقلم .

العصور ، حظيت بصحبته يوم عاد إلى مصر من نفيه في (سرنديب)[٥٥] شيخا تحطم كالنسر يهوي مهيض الجناح ، وقد كان فارس جيش (عرابي) الذي ثار في (عابدين) على الظلم والظالمين ، نعمت بمرآه في منتداه الذي هنالك كانت تُدار كئوس رحيق القصائد بين مريديه ، أعربت عما تكنّ له من وفاء :

[أميرَ القوافي إن لي مستهامةً ... بمدح ومن لي فيك أن أبلغ المدى
أعِرني لموجبكَ اليراعَ الذي به ... تخطّ وأقرضني القريض المسددا
وهبنيَ من أنوار علمك لمعةً ... على ضوئها أسرِي وأقفو مَن اهتدى
سلبتَ بحار الأرض دُرَّ كنوزها ... فأمست بحارُ الشعر للدُّر مَوْردا
وصيَّرت منثور الكواكب في الدجى ... نَظِمها بأسلاك المعاني منضَّدا
وجئتَ بأبياتٍ من الشعر فُصّلت ... إذا ما تلوها أُلقِيَ الناسُ سُجَّدا]

وفيتَ (لمحمودَ) حيا فلما استرد الإله الرحيم وديعتَه راعك الخطبُ ، ودعت (سامي) كطفل يتيم ، وخلته وهو في جنة الخالدين :

[رُدّوا علىّ بياني بعد (محمودِ) ... إني عَيِيتُ وأعيى الشعر مجهودي
لبيك يا مؤنس الموتى ومُوحشنا ... يا فارس الشعر والهيجاء والجود
لبّيك يا شاعرا ضنّ الزمانُ بهِ ... على النهى والقوافي والأناشيد
لو حنّطوك بشعر أنتَ قائلهُ ... غَنِيتَ عن نفحات المِسك والعود
لبيك يا خير من هز اليراع ومن ... سَيَّفَ الحسام ومن لبّى ومن نودي
إن المناصب في عزْل وتوليةٍ ... غيرُ المواهب في ذكر وتخليد
أقول للملأ الغادي بموكبهِ ... والناسُ ما بين مكبود ومفؤود
غضّوا العيونَ فإن الرّوحَ يصحبكم ... مع الملائك تكريما (لمحمود)]

---

(٥٥) سرنديب : جزيرة سيلان ، حيث دولة (سريلانكا) .

شاعر النيل في رحاب الإمام

أيا شاعر المِنّيل كنتَ صَفِيَّ الإمام بندوته حين كانت هناك في (عين شمس) ، ودُمتَ مريدا له في الحياة وذاكره في الممات ، ففي مِدْحة من قصيدة صورت فيها مناقبه النيّرات ، ذكرت يقينك بعد ارتياب ، بفضل دروس الإمام :

[صحبتُ الهدى عشرين يوما وليلةً ... فقرّ يقيني بعد ما كان يَرجُف
فرحت وفي نفسي من اليأس صارمٌ ... وعدتُ وفي صدري من الحِلم مُصحف
وكنت كما كان (ابن عمران) ناشئا ... وكان كمن في (سورة الكهف) يوصف[٥٦]
كأن فؤادي إبْرة قد تمغطست ... بحبك أنّي حُرّفت عنك تعطف]

ولما استرد الإله الرحيم وديعتَه راعك الخَطْبُ ، ضِقتَ بهذي الحياة ، فموتك كان أحب إليك من الموت حيا ، وقد غَربت في سمائك شمس الإمام ، فقد كان من بعد يُتْمك في مستهل شبابك نعمَ الأبُ المرتجى إذا ما استبدت بك النائبات ، قصيدك حين رثيت الإمام نواح اليتيم إذا فقد العائل العادل المتهللَ فرْحا إذا ما رآه ، الحزينُ إذا غاب عن ناظريه ، وكان رثاؤك للشيخ بعد الرحيل ، رثاء لنفسك من بعد فقد الحبيب ، ومرثية للوجود :

[آذنت شمس حياتي بمغيبِ ... ودنا المنهل يا نفسُ فطيبي
قد فُجعنا بإمامٍ مُصلح ... عامر القلب وأواب منيب
كم له من باقيات في الهدى ... والندى بين شروق وغروب
يبذل المعروفَ في السر كما ... يرقب العاشقُ إغفاءَ الرقيب
يُحسن الظنّ به أعداؤهُ ... حين لا يُحسَنُ ظنٌّ بقريب
رحمة الله عليه كلما ... خرج التفسير عن طوق الأريب
رحمة الرأي عليه كلما ... طاش سهمُ الرأي في كف المُصيب]

---

(٥٦) يشير إلى قصة نبي الله موسى الكليم مع الخضر عليهما السلام ، وإكثار موسى على الخضر في الأسئلة ، وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة الكهف .

الوفاء للغة القرآن

وفاؤك يا شاعر النيل للضاد ما مثله وفاء ، فُطِرْتَ محبا لها عاشقا تغار عليها كما يغار مجنون ليلى ، وتحرسها من مكائد حسادها ، فقد خلقت لغة للبيان الحكيم ، فعزت وسادت كمريم قديسة في النساء ، فلا غرو أن (النواسيّ) مجّدها قائلا إنها ربة للغات سجدن لها ، فمالي أراك على بعد ما بيننا تعود لتعزف لحن الأسى للهوان الذي حاق بالعربية في عصرك الذهبي ، فكيف إذا جئتنا ورأيت المعاول تهدمها ، على حين تُحيي عصابةٌ صهيونَ عِبْريةً من ممات ، وتجعلها لغة للحياة ، شكّتْ مقولةَ لا تصلح العربية لغة للعلوم ، والضاد كانت وسوف تظل تعبر عنها ، كما في دمشق ، فقد عُرِّبَ الطب والكيمياء ، بكيت فأبكيتنا برثاء الحبيبة ، يا ليت أربابها يعيدون مجدا لها ، يصولون مثلك كالليث يحمي حماه ، فلا يشمت الشامتون ، وكيف نبيت نياما وقد سهر المعتدون ، ألا فليكن دَرْسُ كل صباح هتافَ الشّداة بتائية قالها حافظٌ بلسان التي اختارها الله من بين كل اللغات لسانا له معجزا :

[رجعتُ لنفسي فاتهمت حَصاتي ... ونديتُ قومي فاحتسبت حياتي
رَمَوْني بُعقم في الحياة وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عُداتي
وَسِعتُ كتابَ الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماءِ المخترعات ؟
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي ؟
أرى لرجال الغرب عزا ومَنْعة ... وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات !]

الوفاء للتاريخ العربي الإسلامي

بعين وقلب وفكر المحب الوفي تأملتَ – فيما تأملتَ – تاريخ أمتك العربية في عز إسلامها ، فبُهرتَ بسيرة (فاروقها) صفي النبي ، وما كان من عدله وإيمانه بحقوق الرعية من مؤمنين ومن دخلوا في ذمة المسلمين يهودا نصارى ،

فأبدعتَ (هائيةً) تؤرخ عهدَ الخليفة ، كيما يكون لنا قدوة وتاريخه عبرة تضيء السبيل لمن يهتدون ، فصورت عامل (كسرى) السفير إلى (عمر) بالمدينة سعى إلى عقد صلح يقي الأمتين من الحرب والكرب والظلمات .

[وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا ... بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها ... سورا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقا في نومه فرأى ... فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ... ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهمو ... فنمت نوم قرير العين هانيها]

العزف على القيثارة الوطنية

أيا شاعرَ الوطنية كم ذاب قلبك حبا لمصر وأبنائها الأوفياء ، وكم ضقت ذرعا بمستعمريها وخُوّانها المفسدين ، يجلّ عن الحصر ما قد نظمت من الشعر عشقا لها وحنينا إليها إذا غبت عنها ، وأروع ما قد نظمت قصيدا تغنت به (أم كلثوم) أسطورة العشق والعاشقين :

[وقف الخلق ينظرون جميعا ... كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة الأهرام في سالفِ ... العهد كفوني الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته فرائد عقدي
ما رماني رام وعاد سليما ... من قديم عناية الله جندي
أنا إن قدر الإله مماتي ... لن ترى الشرق يرفع الرأس بعدي]

ومصر هي البدء والمنتهى لكل قصيدٍ نظمت ، كأن دماء الشرايين تنساب منها إليك ، أيا عاشقا للتراث القديم الجديد وللفن أبدعه فراعين مصر ، وللشعر أبدعه العرب القادمين إليها لإنقاذها من الروم حتى تعود محررة من قيود الهوان ،

امتدحت فضائلها النيرات ، وآليت أن تفتديها بما قد ملكت ، لكيما تعود إليها الحياة ، وألا يعيث فسادا على أرضها الغاصبون :

[كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... في حب مصر كثيرة العشاق
إني لأحمل في هواك صبابة ... يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفي عليك متى أراك طليقة ... يحمي كريم حماك شعب راقي
كَلِفٌ بمحمود الخلال متيم ... بالبذل بين يديك والإنفاق]

تغنيت منذ شبابك يا شاعر النيل بالنيل ، والنيل مصر ومصر هي النيل ، أهديتها الشعر والعمر ، صبًّا بها مشوقا إليها على القرب والبعد ، كان مرادك أن تفتديها بروحك يا عاشقا لا يمل الحديث عن الوطن الحر والثائرين لنجديته من عداة الشعوب :

[لعمرك ما أرقت لغير مصرٍ ... ومالي دونها أمل يُرامُ
ذكرت جلالها أيام كانت ... تصول بها الفراعنة العظام
وأيامَ الرجالِ بها رجالٌ ... وأيامُ الزمان لها غلام
فأقلق مضجعي ما بات فيه ... وباتت مصر فيه فهل ألام ؟]

ويا شاعر النيل كم ذا امتدحت أوائل ثوارنا في الحياة وفي الموت ، جيلا تعاقب من بعد جيل ، فمصر وَلود وليست لتعقم مهما ادلهمت عليها الخطوب ، وأخنى عليها الزمان ، فبعد (عرابي) وثورته جاء (كاملُ) مصرَ لينقذها من هوان الخضوع المهين لشرذمة المعتدين ، فثار عليهم كليث هصور ، فسلوا عليه سيوف الحصار ، فهاجر كرها إلى بلد لا يُضام الغريبُ به ، واستعان بأحراره في الكفاح لتحرير مصر من المعتدين ، ولما قضى نحبَه الفارسُ الحر ، من بعد عمر قصير ، وآب إلى عالم الخالدين بكيتَ المناضل رمز الفداء ، وصورته بطلا يقتدي الناشئون به كما قلت في معهد باسمه شِيدَ بعد الرحيل :

[فيا أيها الناشئون اعملوا ... على خير مصر وكونوا يدا

ستظهر فيكم ذوات الغيوب ... رجالا تكون لمصر الفدا
فيا ليت شعريَ من منكمو ... إذا هي نادت يلبي الندا
لكَ الله يا (مصطفى) من فتى ... كثير الأيادي كثير العِدا
إذا ما حمدتك بين الرجال ... فأنت الخليق بأن تُحمدا
سيحصي عليك سجل الزمان ... ثناء يخلد ما خلدا
ويهتف باسمك أبناؤنا ... إذا آن للزرع أن يُحصدا]

وفاؤك للبطل الحر يوم نعاه النعاة سيبقى مُعينا لنا كلما سدد الغادرون سهاما إلينا ، ويبقى مَعينا لإلهامنا ما رثيت به المصطفى بين أقرانه مثلا ساطعا يُحتذى في فداء الوطن :

[أيا قبرُ هذا الضَّيْف آمال أمةٍ ... فكبرْ وهللْ والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك (المصطفى) ... شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو أنَّا فقدناه وحده ... لكنَ التأسِّي من جوى الحزن شافيا
ولكنْ فقدنا كل شيء بفقده ... وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا
عليك وإلا ما لذا الحزن شاملا ... وإلا ما لذا الشعب باكيا
فيا نيل إن لم تَجْرِ بعد وفاته ... دما أحمرا لا كنت يا نيل جاريا
ويا (مصر) إن لم تحفظي ذكر عهده ... إلى الحشر لازال احتلالك باقيا]

رثيتَ (فريد) وقد جاء نجما يطل علينا بأنواره ، كي نجود كما جاد بالمال والجاه ، حبا لمصر ، فكان طليعتها في الوفاء ، ومات على سطح بيت (ببرلين) مغتربا ، حيث كان يحث الشعوب على غوث شعب الكنانة من ظالميه ، كأني أراك أيا شاعر النيل تبكيه يوم انطوت راية المجد حزنا عليه ، ترجّع أنات طير مهيض الجناح (فريد) مضى قبل أن يحرره من عذاب الإسار ، ووادٍ تمنى اللقاء به ، كي يغني لحرية النيل والشعب ، من بعد يقظة للدفاع عن الأرض والعرض ضد الغزاة المغيرين مثل الجراد ، على المؤمنين بحق الحياة ، ومثل الوباء المسلط فوق صدور العباد ، فيا شاعر النيل كم روعتك وفاة المناضل حتى رأيت

الضياء ظلاما وقد غيّب النجم تحت التراب ، فناشدت طير الربى أن يكف عن الشدو ، والزهر ألا يبوح بعطر ، فقد مات رب أغاني النضال ، ورب عبير المحبة للنيل ، من قبل أن يشهد الشعب مبتهجا بجلاء العداة :

[من ليوم نحن فيه مـن الغـد ... مات ذو العزمة والـرأي الأسَـدْ
أيها النيـل لقـد جـل الأسـى ... كن مـدادا لـي إذا الـدمع نفـد
واذبلي يا زهـرة الـروض ولا ... تبـسمي للطـل فـالعيش نكـد
والـزم النـوح أيـا طيـر ولا ... تبـتهج بالـشدو فالـشدو حـدد
فلقـد ولـى (فريـد) وانطـوى ... ركن (مـصر) وفتاهـا والـسند
يا غريب الـدار والقبـر ويـا ... سلوة (النيل) إذا ما الخطب جـد]

ويستطرد الشاعر الوطني فيذكر (كامل مصر) رفيق (فريد) وكانا معا في (فرنسا) يشنان حربا على الظلم والظالمين الألى أغاروا على مصر مثل الذئاب :

[قل لِصَبِّ (النيـل) إن لاقيتَـهُ ... في جوار الـدائم الفـرد الـصمد
إن (مصرا) لا تني عن قـصدها ... رغم ما تلقـى وإن طـال الأمـد
فاسترح واهنأ ونم فـي غبطـةٍ ... قد بذرتَ الحَبَّ والـشعبُ حـصد
آثـر (النيـل) علـى أموالـه ... وقـواه وهـواه والولـد
يطلب الخيرَ (لمصر) وهو فـي ... شِقوة أحلى من العـيش الرغـد]

شاعر ثورة ١٩١٩

أيا شاعر الوطن المفتدى بالحياة قصيدك قيثارة تتغنى بملحمة الثائرين ، لكي يطلقوا الشمس من ظلمات السحاب ، وأنشودة السائرين يقوظا على الدرب ، درب الكرامة للزارعين وللعاملين ، تغنيتَ فيها (بسعدٍ) زعيم البلاد الذي اختاره الشعب نبراسَ نورٍ يضيء الطريق إلى المجد بعد الهوان .

لقد أرخ (الرافعي) وقائع ثورة مصر ، وعدد أبطالها في كتاب مبين ، وأرّخت صورةَ أحداثها الصاخبات ووجدانَ شعبك ، لا ناثرا باليراع يُسطّر ، بل

شاعرا ثائرا ملهما تتألق سحرا قوافيك من وحي قلبك ، حتى نكاد نرى الحادثات، وقد بُعثت من جدد على بُعد ما بيننا من سنين ، كأنك أنفاسُك الشعر حين أشدت بسعد ، وأطلقت سهم هجاء على الغاصبين .

وأنشدتَ بين يديه قصيد مديح تُردد فيه اسمه ، يعبر عن حب مصر لسعد مخلّصها المرتجى لطرد الطغاة فجاءت تحييه بعد غياب :

[إني أرى نورا يفيض وطلعـةً ... قد زانها وَضَحُ الجبـين المـشرقِ
هذا زعيم النيـل حـل عرينـهُ ... بعد الغيـاب فيـا وفـودُ تـدفقي
وتنظَّـري إن الخـلاص محـتمٌ ... فـالله أسـلم أمرنـا لموفـق
كم أزمةٍ مرت بنا فاجتاحهـا ... (سـعدٌ) بـسيل بيانـه المتـدفق
يا أيها السبَّاق في طلـب العـلا ... ها قد أتيـتَ مُجَلِّيًـا لـم تُـسبق
سبقَ البشير ركاب (سعد) جاريا ... وركاب (سعد) وانيا لـم يلحـق]

ولما نجا(سعد)من جُرْم غِرٍّ أثيم سعى (بمحطة باب الحديد) ليقتله غِيلةً فاض شعرك وأنت تهنئه بالنجاة ورجما لمن رام مقتل شعب الزعيم :

[إن الذي انـدس الأثـيمُ لقتلـهِ ... قد كان يحرسـه لنـا (جبريـلُ)
أيموت (سعدٌ) قبل أن نحيـا بـه ... خَطْبٌ على أبنـاء مـصرَ حليـل
يا (سعدُ) إنك أنت أعظـم عُـدَّةٍ ... ذُخرتْ لنا نسطو بهـا ونـصول
ولأنت أمضى نبلة نرمـي بهـا ... فانفـذ وأقـصد فالـسهام قليـل
(النسر) يطمع أن يصيد بأرضنا ... سنريه كيـف يـصيده (زغلـول)
إنـا رمينـاهم بنَـدْب حُـوَّلٍ ... عن قصد وادي النيل ليس يميـل]

وصورتَ يا شاعر النيل آلام شعبك حين أصيب الرئيس بجرح وفرحتَه بالنجاة لكي يحفظ الله مصرَ من المعتدين :

[فادفع وناضل عن مطالب أمةٍ ... يا (سعدُ) أنـت أمامهـا مـسئولُ
كادت تُجَنُّ وقد جُرحتَ وخانهـا ... صبرٌ على حَمْل الخطوب جميـل]

يا (سعد) كاد العيد يصبح مأتما ... الدمع فيه أسى عليك يسيل
لولا دفاعُ الله لانطوت المنى ... عند انطوائك وانقضى التأميل]

وزُلزلت الأرضُ زلزالها يوم نُعِيَ الزعيمَ النحاةَ ، وأحسست أن القيامة حانت ، وناديت ، يا سعد لا تحتجب واسترح ثم عد ، فليس لنا من حياة إذا غبت عنا ، فأنت لمصر وأنت الحياة لنا كلنا نفتديك فلا تحتجب :

[إيه يا ليلُ هل شهدت المُصابا ... كيف ينصبُّ في النفوس انصبابا
بلِّغ المشرقين قبل انبلاجٍ ... الصبحِ أن الرئيسَ ولى وغابا
وانْعَ للنيِّرات (سعدا) (فسعدٌ) ... كان أمضى في الأرض منها شهابا
قُدّ يا ليلُ من سوادك ثوبا ... للدراري وللضحى جلبابا
إنسج الحالكاتِ منك نقابًا ... وأجب شمس النهار ذاك النقاب

قل لها غاب كوكب الأرض في الأرض فغيبي عن السماء احتجابا
مات (سعدٌ) لا كنتِ يا (مات سعدٌ) ... أسهاما مسمومة أم حرابا
خرجت أمة تشيّع نعشا ... قد حوى أمة وبحرا عبابا]

العزف على وتر العروبة

تحدرتَ من فرعيْ العُرب والتُّرك ، لكنما قد عشقت العروبة قلبا وفكرا ، وكنت المدافع عن مجدها حافظا للتراث تباهي به العالمين ، على حين يؤثر شوقي الخلافة في (الأستانة) بالحمد شعرا ونثرا ، فأنت وليد الكنانة لا ترتضى غيرها موطنا ، كما تعشق الشام درة عقد العروبة ، حيث دعاك إليها محبوك ، كي ينعموا في (دمشقَ) بلقياك في ضفتي (بَرَدى) ، واستماعٍ لشعرك ينساب منك ، كقطر الندى في (بُلودانَ) و (الغوطةِ) الألمعية بالماء والزهر والفاتنات الحسان ، فأنشدت (بائية) لم تزل تضيء الطريق إلى وَحدة بين مصر وجيرانها الأقربين :

[لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ ... هنا العلا وهناك المجد والحَسَبُ

ركنان للشرق لا زالت ربوعهما ... قلبُ الهلال عليها خافق يَجِب
خِدران للضاد لم تُهتك ستورهما ... ولا تحول عن مغناهما الأَدب
أم اللغات غداة الفخر أمهما ... وإن سألت عن الآباء فالعرب
إذا ألمت بوادي النمل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تنتحب
وإن دعاني في ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه في ذرا لبنانَ منتحب
ما فقدها الكنانة إلا الشام عاج على ... ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُب]

رأيت ديار العروبة أجمل ما خلق الله في الأرض مبنى ومعنى ، فناديت أن يجمع الله شمل الكنانة والشام في وَحدة ، لأنك آمنت أن التآخيَ رغم اختلاف المواقع نهج لمستقبل باهر زاهر قاهر لعداة العروبة من غاصبين ومن عصبة المارقين ، فيا راعيَ الوَحدة المرتجاة ، لقد جاء (جِلَّقَ) (ناصرُ) من بعد ست وعشرين عاما مضت منذ فارقتَها إلى عالم الخالدين ، فوا أسفا ألا تعيش لتشهد في مصر والشام قلبَ الملايين يهتف : ناصرُ ناصرُ يا فارسا جاءنا ليجمعنا من شتات ، ولكنما المغرضون عُداة العروبة قد كسروا حلمنا المتحقق ، فانهار تحت معاول بغضائهم والحراب ، فعدت أيا شاعر العروبة بعد رحيلك تبكي العرب .

حافظ شاعر الإنسانية

تعلمتَ من مصر مهد الحضارات ، والشرقِ أرضِ الديانات ، أن بني آدم يستوون ، فلا فضلَ يعلو بشعب على غيره في الحقوق ، ولا مَلِك غير ربِّ العباد ، أتوا من تراب ، إليه يعودون ، فازددت حبا لكل البرايا . ورغم انتمائك للعربية لم تتعصب لها ، بل أردت النهوض بها ، بإغنائها برصيد جديد من الأدب الأجنبي ، فترجمت رائعة (البؤساء) (لهوجو) ، لأنك أدركت أن الثقافة تبني جسور التواصل بين الشعوب بآدابها والفنون ، فسيان عازف ناي هنا ومُغَنٍّ هناك ، وناظمُ شعرٍ على النيل أو (بَرَدى) الشام أو دِجلة والفرات ، وآخرُ في بلد

(السين) و (الأنفيلد)[٥٧] ، فهم من أب واحد ينسبون إليه ، هو الفن أنعم به من نسب .

فآثرت بالمدح من نذروا زاد أفكارهم للشعوب جميعا ، ولم يقصروه على شعبهم ، وكانوا بها رحماء ، ومنهم (تولستوي)[٥٨] هذا الأديب الحكيم ، فكان رثاؤك لما قضى نحبه آية في المراثي :

[لقد كنتَ عونا للضعيف وإنني ضعيف ومالي في الحياة نصيرُ
ولستُ ابالي حين أبكيك للورى حوتك جِنانٌ أم حواك سعير
فإني أحب النابغين لعلمهم وأعشق روض الفكر وهو نضير]

وشبهته (بالمعريِّ) في العلم والزهد يستويان ، فدينهما واحدٌ رحمةً بالعباد :

[إذا زرت رَهْنَ المحبسين بحفرةٍ بها الزهد ثاو والذكاء ستير
وأبصرت أنس الزُّهد في وحشة البِلَى وشاهدت وجه الشيخ وهو منير
وأيقنت أن الدين لله وحدهُ وأن قبور الزاهدين قصور
فقف ثم سلم واحتشم إن شيخنا مهيب على رغم الفناء وقور
قضيت حياة ملؤها البِرُّ والتقى فأنت بأجر المتقين جدير]

حريق ميت غمر وزلزال مسينا

بلغت ذرا العالمية يا شاعر النيل حين رثيت ضحايا الكوارث في مصر أم غيرها من بلاد ، فأبكاك موت بنيها صغارا كبارا نساء رجالا ، فقلبك متسع لم يضق ، رغم ما قد بُليت به من نوائب نفس وما حملت من شقاء ، وكان قصيدك

---

(٥٧) يشير إلى النهر الفرنسي ، والأنفيلد : صرح في باريس يثوى به العظماء .

(٥٨) تولستوي : من أشهر الأدباء والفلاسفة الروس ، وقد تنازل عن ثروته العقارية للفقراء، ومن أبرز أعماله الروائية (الحرب والسلام) .

حزنا على (ميت غمر)[٥٩] التي غالها في الظلام حريق ، فسويت الأرض بالساكنين ، أنينا كأنك ترثي بلادك جمعاء أو تندب العالمين :

[سائلوا الليل عنهمو والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم نارا

كيف طاح العجوز تحت جدار يتداعى وأسقف تتجارى
ربِّ إن القضاء أنحى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدار
ومُر النار أن تكف أذاها ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروي هذه النار فهي تشكو الأوارا[٦٠]
أكلت دورهم فلما استقلت لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عراة حَذَر الموت يطلبون الفرارا

أيها الرافلون في حلل الوشي يجرُّون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوما جياعا يتوارون ذلة وانكسارا]

وحين أصيبت عروس مدائن (روما) بزلزالها روعتك محركة وتر الأسرة البشرية في معزف من قصيد لديك ، لما نالها من كوارث في البر والبحر أدوت بسكانها وما ملكوا من تماثيل (للروم) شامخة جسدت مجدهم والفخار ، فكان الدمار مصير البناة وأبنائهم ورموز الجلال القديم :

رب أين المفر والبحر والبر على الكيد للورى عاملان ؟
كنت أخشى البحار والموت فيها راضٍ غفلة من الربان
سابح تحتنا مطل علينا حائم حولنا مُناء مداني
فإذا الأرض والبحار سواء في خلاق كلاهما غادران
ما (لمسين) عوجلت في صباها ودعاها من الردى داعيان

---

(٥٩) ميت غمر : مدينة بمحافظة الغربية .

(٦٠) صاحب الفُلك : نوح عليه السلام ، والفُلك : السفينة .

ومحت تلكم المحاسن منها حين تمت آياتها آيتان]

وصورت يا شاعر النيل ، ما كان بالأمس من مرح العاشقين ، ومن ضحكات لأطفالها في الملاعب في الروحات وفي الغدوات ، ومن صخب مسعد للمغنين ، أصواتهم في الفضاء تجلجل ريًا بماء الحياة كما كان آباؤهم يصدحون ، وكان الذي كان موتٌ دمارٌ (لمسّين) :

[خُسفت ثم أُغرقت ثم بادت قُضِيَ الأمرُ كله في ثواني
وأتى أمرُها فأضحت كأن لم تك بالأمس زينة البلدان
ليتها أُمهلت فتقضي حقوقا من وداع اللّداتِ والجيران(٣١)
لمحة يسعد الصديقان فيها باجتماع ويلتقي العاشقان]

في موكب الخالدين

نشأت فقيرا أيا شاعر النيل عدت غنيا بموهبة الشعراء الكبار ، مدحت رثيت وصفت ، وكنت وفيا لمصر وأحرارها تتغنى بشعبك ، تشدو لكل الشعوب ، تنادي بوَحدة مصر وسورية ، وتشتاق وجدا لحرية العُرْب شرقا وغربا فتشمل كل الأشقاء ، كم ذا دعوت لضم الصفوف من الماء للماء حين امتدحتَ وبايعتَ (شوقي) :

[أميرَ القوافي قد أتيتُ مبايعا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
فغنِّ ربوعَ النيل واعطِف بنظرة على ساكني النهرين واصدح وأبدع
ولا تنس (نجدا) إنها منبت الهوى ومرعى المها من سارحات ورتّع
وحيِّ ذُرا (لبنانَ) واجعل(لتونسٍ) نصيبا من السلوى وقسِّم ووزع]

وآمنت بالشعر يهدي إلى المكرمات ، ويحيي القلوب بآياته الملهمات ، وكم كان أمضى من السيف في نُصرة العدل والعادلين :

---

(٣١) اللدات : الصواحب والجمع لِدَة .

[ففي الشعر حثُّ الطامحين إلى العلا وفي الشعر زهد الناسك المتورعِ
وفي الشعر ما يغني عن السيف وقعُهُ كما رَوّع الأعداء بيتٌ (لأشجع)(٣٢)]

عليك السلام أيا شاعر النيل طِبْتَ مقاما كريما بجنة عدْن مع الصادقين ، مع البائسين ، مع الثائرين على من طغوا واستبدوا ، مع المؤمنين بحرية العالمين .

---

(٣٢) يشير إلى بيت لأشجع بن عمرو السلمي الشاعر العباسي من قصيدة يمدح بها الرشيد .